من قمبيز إلى الولي الفقيه
خدعة الفرس لاحتلال الشرق الأوسط
دراسة في توظيف الشرعية الدينية كأداة سياسية عبر التاريخ



دكتور
ابراهيم محمد عبد الجليل

من قمبيز إلى الولي الفقيه

خدعة الفرس لاحتلال الشرق الأوسط

دراسة في توظيف الشرعية الدينية كأداة سياسية عبر التاريـخ

دكتور / إبراهيم محمد عبد الجليل



يهدف هذا البحث إلى تحليل تطور الخطاب الفارسي في توظيف الشرعية الدينية لتبرير السيطرة السياسية على الشرق الأوسط، بدءًا من الغزو الفارسي لمصر بقيادة قمبيز الثاني سنة ٥٢٥ ق.م، وصولًا إلى نظرية ولاية الفقيه في العصر الحديث. يستعرض البحث الجذور التاريخية لفكرة "أبناء الآلهة" التي استخدمها قمبيز لتثبيت حكمه في مصر، ويقارنها بمفهوم "أهل البيت" و"الولاية الإلهية" في الفكر السياسي الشيعي المعاصر، بوصفها استمرارًا للنمط الفارسي في إضفاء القداسة على السلطة لتحقيق مشروع الهيمنة.

المقدمة

منذ العصور القديمة، استخدم الفرس الأسطورة والدين كأدوات لبناء شرعية سياسية تتجاوز القوة العسكرية. وقد مثّل غزو قمبيز الثاني لمصر في القرن السادس

قبل الميلاد البداية الرمزية لهذه الإستراتيجية، إذ أعلن نفسه ابنًا للإله آمون ليكسب ولاء الكهنة والمصريين، محولًا الاحتلال إلى وراثة مقدسة.

في العصر الحديث، أعادت إيران صياغة هذا النمط تحت لافتة "ولاية الفقيه"، حيث يستمد الحاكم سلطته من التفويض الإلهي المستند إلى نسب أهل البيت. ومن هنا، يربط البحث بين الوراثة الأسطورية القديمة والوراثة الدينية السياسية الحديثة بوصفهما وجهين لخدعة واحدة: احتلال الشرق الأوسط باسم السماء.

أولًا: قمبيز والشرعية الإلهية في مصر القديمة

يُروى أن قمبيز، بعد أن رفض كهنة معبد آمون الاعتراف بألوهيته، قرر أن يثبت شرعيته بالقوة، فأرسل جيشًا قوامه نحو خمسين ألف جندي إلى واحة سيوة ليعاقب الكهنة ويُخضع المعبد. لكنّ الصحراء الغربية كانت له بالمرصاد؛ إذ التهمت الرمال جيشه كله، كما تذكر المصادر القديمة مثل هيرودوت، ولم يُعثر لهم على أثر حتى اليوم([١]).

تحوّلت تلك الحادثة إلى رمز لانكسار الغطرسة الدينية والسياسية، إذ عُدّت الهزيمة في سيوة لعنة آمون على من ادّعى الألوهية زورًا. فبينما حاول قمبيز أن يثبت أنه ابن الإله، أثبتت الصحراء أن من يتأله يهلك، وأنّ القداسة المصطنعة لا تحمي من سنن الأرض([٢]).

[١] - مقال يناقش مسار الحملة وأسباب اختفاء الجيش في الرمالBible History+ .
[٢] - تقرير عن الاكتشافات التي أعلنها الباحثان الإيطاليان (عظام، أوانٍ، أسلحة) في الصحراء قرب سيوةcais-soas.com+1 .

وهكذا، انتهى مشروع "الوراثة الإلهية" الذي أراد قمبيز تأسيسه في مصر قبل أن يكتمل، ودفن معه جيشٌ بكامله تحت الرمال، ليبقى المثال المبكر على أن الشرعية لا تُستورد ولا تُصنع بالقهر، بل تنبع من وعي الشعوب وعدالة القوانين[٣].

وقد ظلت قصة جيش قمبيز تذكيرًا متجددًا لكل قوة تغلف أطماعها بشعارات دينية، بأن رمال سيوة لا تُخدع بالقداسة المزيفة.

---

[٣] - تحليل في مجلة Archaeological Institute of America عن الحملة وبقايا محتملة في الصحراء الغربية. archive.archaeology.org

ثانيًا: فكرة الوراثة المقدسة في الفكر الفارسي

في الفكر الفارسي القديم، لم تكن الوراثة المقدسة مجرد نظام سياسي، بل كانت عقيدة كونية تُنظّم العلاقة بين السماء والأرض، وبين الملك والشعب. فالفُرس اعتقدوا أن الكون يقوم على ثنائية دائمة بين النور والظلمة، وهي فكرة زرادشتية الأصل، جعلت الملك يمثل النور، أي الإرادة الإلهية، في مواجهة قوى الفوضى والظلام. ومن هنا، كان يُنظر إلى الملك بوصفه المختار من الإله القادر وحده على حفظ النظام الكوني (الأشا).

كان هذا التصور ينعكس في الألقاب الملكية مثل "شاهنشاه" (ملك الملوك)، التي تُظهر أن الحاكم ليس بشرًا عاديًا، بل واسطة بين الإله والعالم. ولأجل تثبيت هذه القداسة، استخدم الفرس الكهانة والرموز الدينية والنصوص المقدسة لتبرير السلطة وتوسيعها. فكل توسع سياسي كان يُقدَّم كـ"فتحٍ إلهي" يعيد النظام إلى العالم المضطرب، وبذلك تماهت الشرعية السياسية مع الوظيفة الدينية.

وقد تطورت هذه الفكرة عبر العصور، فانتقلت من العقيدة الزرادشتية إلى صيغ أكثر براغماتية، لكنها احتفظت بجوهرها: أن السلطة لا تُكتسب بالكفاءة أو الاختيار الشعبي، بل تُورّث بالتفويض الإلهي والاصطفاء الروحي. وهنا تتضح جذور ما يمكن تسميته بـ"الولاية الكونية"، التي تمثل الأساس الرمزي لما سيظهر لاحقًا في الفكر الإيراني الحديث تحت اسم ولاية الفقيه، أي استمرار الحاكم المقدس في ثوب ديني جديد.

إن تتبّع مسار هذه العقيدة يكشف انتقالها التدريجي من الزرادشتية إلى التشيع السياسي دون أن تفقد جوهرها القداسي.

ففي الديانة الزرادشتية كان الملك يُختار بتفويض من الإله أهورا مزدا، ويُعدّ تجسيدًا للنور في مواجهة قوى الشر، بينما في التشيع ظهرت فكرة أن الإمام المعصوم هو "نور من نور النبي"، لا يخطئ لأنه مؤيد من الله.

الاختلاف في المظهر، لا في البنية العميقة؛ إذ في كلا النموذجين تُمنح السلطة بناءً على الاصطفاء الروحي لا على الشورى أو الكفاءة، ويُربط الحكم بالقداسة لا بالقانون.

بهذا، يمكن القول إن ولاية الفقيه في صورتها الحديثة ليست انقطاعًا عن الموروث الفارسي القديم، بل امتداد ثقافي ولاهوتي لفكرة "الملك الإلهي" التي وُلدت في بلاطات قمبيز ودارا وكورش، ثم تسربت إلى المذهب عبر فكرة أهل البيت والإمام المعصوم، لتعود في العصر الحديث بثوب "الولي الفقيه" الذي يحكم باسم التفويض الإلهي لا باسم الأمة.

ثالثًا: من أبناء الآلهة إلى أهل البيت

مع دخول الإسلام إلى بلاد فارس في القرن السابع الميلادي، لم تختفِ النزعة الفارسية القديمة نحو الوراثة المقدسة، بل وجدت في الإسلام أرضًا جديدة تعيد من خلالها صياغة مفهوم القداسة بشكل أكثر قبولًا دينيًا. فالفكر الفارسي الذي اعتاد تقديس الملك واعتباره ابنًا للإله، لم يتخلّ عن هذا الموروث بسهولة، بل أعاد إنتاجه داخل المنظومة الإسلامية في ثوب جديد هو "النسب النبوي" و**"الوصاية

الإلهية"**. وبدلًا من ابن الإله، ظهر مفهوم الإمام المعصوم الذي لا يُخطئ، ويمتلك معرفة خاصة، وحقًّا إلهيًا في قيادة الأمة، لا يحق لأحد منازعته فيه.

كان الإسلام في جوهره دعوة إلى المساواة وتحرير الإنسان من الوساطة الكهنوتية، غير أن الفرس وجدوا في فكرة "أهل البيت" مدخلًا لاستعادة نظام الوراثة المقدسة الذي فقدوه بسقوط عروشهم. فالإمامة في الفكر الشيعي لم تبق مجرد عقيدة روحية، بل تحولت إلى مشروع سياسي منظم يستند إلى نظرية الاصطفاء الإلهي، حيث يُصوَّر الإمام كامتداد للنبوة في وظيفتها التوجيهية والحاكمة.

وهنا نجد أول ملامح "التحوير الفارسي" في الفكر الإسلامي؛ إذ لم تعد القيادة اختيارًا حرًا للأمة كما في نموذج الخلافة الراشدة، بل وصاية إلهية تورّث بالنسب، تمامًا كما كان الملك في فارس يُورَّث بالدم الإلهي(٤).

وقد ساعدت البيئة الفارسية، بما تحمله من نزعة روحانية هرمية، على ترسيخ هذا التصور، إذ وجدت في فكرة الأئمة المعصومين امتدادًا طبيعيًا لفكرة "الملك المقدس". ومن هنا، تحولت العلاقة بين الإمام والأمة إلى علاقة تابع ووليّ، لا علاقة عقد سياسي بين مواطن وحاكم. ومع مرور الزمن، صار النسب إلى أهل البيت أداة تمنح الشرعية المطلقة لمن يحملها، حتى لو كان الحاكم يعيش في ظل سلطات أجنبية أو يقود مشروعًا سياسيًا مغايرًا لتعاليم الإسلام الأولى.

---

[٤] - الشهرستاني يشير إلى أن فكرة الوصاية الإلهية في بعض المذاهب الإسلامية تأثرت بموروثات الأمم القديمة التي ربطت الحكم بالنسب المقدس، مما يُظهر امتداد النزعة الفارسية نحو الوراثة الروحية في الفكر الديني الإسلامي المبكر.)الشهرستاني، *الملل والنحل*، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٤٦.(

ومن الناحية الفكرية، جرى في الفكر الشيعي المبكر تأليه للوراثة لا يختلف في بنيته عن تأليه النسب في الأسطورة الفارسية القديمة. فبينما كان قمبيز يبرر حكمه بأنه ابن آمون، أصبح الإمام يبرر وصايته بأنه وارث علم النبي ومختار من الله. وهكذا، تحولت القداسة من علاقة بين الملك والإله إلى علاقة بين الإمام والله، لكن الدور السياسي بقي واحدًا: منح الحاكم تفويضًا سماويًا يضعه فوق المساءلة، ويجعل معارضته معصية لا رأيًا (٥).

ومن هنا تبلورت فكرة أهل البيت بوصفها المرجعية العليا والضمانة الوحيدة للحق، وهي فكرة في جوهرها استمرار للذهنية الفارسية التي ترى أن الحكم لا يستقيم إلا إذا كان مقدسًا ومحصنًا بالنسب. ومع الزمن، أصبحت هذه الفكرة قاعدة أيديولوجية تقوم عليها الهوية الشيعية السياسية، وتحوّلت الإمامة من مفهوم ديني إلى مشروع دولة، تجسده في العصر الحديث نظرية ولاية الفقيه.

وهكذا، يمكن القول إن انتقال مفهوم "أبناء الآلهة" إلى "أهل البيت" لم يكن انتقالًا عقائديًا بريئًا، بل تحولًا سياسيًا واعيًا أُريد به إعادة إنتاج التراتبية الفارسية القديمة في صورة إسلامية. فالنسب الذي كان في الماضي وثنيًا صار نبويًا، والوصاية التي كانت للكهنة صارت للفقيه، لكن النتيجة واحدة: احتكار القداسة وتوريث السلطة باسم السماء.

رابعًا: ولاية الفقيه وإحياء النمط الفارسي القديم

---

٥ - الطبطبائي، محمد حسين .(2000) *الشيعة في الإسلام* .ترجمة: حسين الحسيني. دار الهادي، بيروت.

يمثل مبدأ ولاية الفقيه في الفكر السياسي الإيراني الحديث إعادة إنتاج دقيقة للنموذج الفارسي القديم، لكن بلغة دينية جديدة. فقد طرح الخميني هذا المبدأ في كتابه الحكومة الإسلامية (١٩٧٠م)، مؤسسًا لفكرة أن الفقيه الجامع للشرائط هو نائب الإمام الغائب، يمتلك سلطة دينية وسياسية مطلقة، بوصفه ممثلًا للإرادة الإلهية على الأرض. وبذلك، لم يعد الحاكم في الدولة الإيرانية مجرد قائد سياسي منتخب أو ملك وراثي، بل أصبح رمزًا مقدسًا يتجاوز حدود الدستور، ويستمد شرعيته من تفويض سماوي يعلو على كل المؤسسات.

هذه الفكرة لا يمكن فهمها بمعزل عن التراث السياسي الفارسي القديم الذي كان يقوم على مفهوم "الملك الإلهي"، حيث يُنظر إلى الملك على أنه ظلّ الإله على الأرض، وأن طاعته جزء من النظام الكوني. ومن هنا، فإن ولاية الفقيه ليست ابتكارًا دينيًا خالصًا بقدر ما هي امتداد لذهنية فارسية قديمة أعيد تدويرها ضمن بنية المذهب الشيعي، لتصبح أداة لإضفاء طابع ديني على السلطة السياسية.

لقد استطاعت إيران، عبر هذا المبدأ، أن تتحول من دولة قومية إلى كيان رسولي عابر للحدود، يزعم أنه يحمل رسالة إصلاحية شاملة للعالم الإسلامي. فالولي الفقيه، بحسب الرؤية الرسمية، ليس قائدًا محليًا، بل ولي أمر المسلمين جميعًا، مما يمنح النظام الإيراني مبررًا عقائديًا للتدخل في شؤون الدول الأخرى، تحت ذريعة "نصرة المستضعفين" أو "حماية المذهب". وهكذا، تُعاد صياغة فكرة "الوصاية المقدسة" التي استخدمها قمبيز في مصر، لكن في قالب جديد يعتمد على الخطاب الديني بدل الأسطورة الوثنية.

إن تشابه الخطابين . خطاب قمبيز وخطاب الولي الفقيه . لا يقتصر على المضمون، بل يمتد إلى المنهج الدعائي والهدف السياسي. فكما دخل قمبيز مصر مدّعيًا أنه ابن آمون، ليبرر الغزو العسكري بغطاء ديني، يقدّم الولي الفقيه نفسه اليوم كوارث شرعي للإمام الغائب، ليبرر التمدد الإيراني بوصفه واجبًا دينيًا. وكما استخدم قمبيز الكهنة لتثبيت سلطته، يستخدم النظام الإيراني المؤسسة الدينية والحوزات لبناء شرعية فوق وطنية، تُخضع السياسة للعقيدة، وتمنح الولاية بعدًا كونيًا يتجاوز حدود الدولة.

وبذلك تتحول ولاية الفقيه إلى مشروع إمبراطوري مغطّى بلغة روحية، يهدف إلى استعادة النفوذ الفارسي القديم في الشرق الأوسط من خلال قنوات دينية، لا عسكرية بالضرورة. فالتبشير بالولاية، وتصدير الثورة، ودعم الجماعات التابعة عقائديًا للنظام الإيراني، كلها أدوات حديثة لنفس الفكرة القديمة: السيطرة على المنطقة باسم السماء.

وهكذا، يمكن القول إن الخميني أعاد بعث روح قمبيز في ثوب الفقيه، حيث يجتمع في كلا النموذجين عنصران ثابتان: القداسة والتوسع. ففي حين ادعى قمبيز البنوة الإلهية ليبرر غزو مصر، يعلن الولي الفقيه اليوم الولاية الإلهية ليبرر التمدد في الشرق الأوسط. كلاهما يوظف الدين كقانون للغزو، وكلاهما يجعل من الشرعية السماوية غطاءً لمشروع دنيوي لا يعترف بالحدود.

خامسًا: التحليل المقارن

عند مقارنة النموذج الفارسي القديم بالنموذج الإيراني الحديث، يظهر بوضوح أن كليهما ينتمي إلى بنية فكرية واحدة تقوم على تسييس المقدس وتحويله إلى أداة توسعية. ففي العصر الأخميني، استند قمبيز الثاني إلى فكرة النسب الإلهي، مدعيًا أنه ابن الإله آمون، ليبرر غزوه لمصر والشرق بوصفه استعادة لحق سماوي في الحكم. هذا الادعاء لم يكن مجرد موروث أسطوري، بل كان محاولة لصياغة تشريع رمزي للسيطرة، حيث تصبح الطاعة للملك واجبًا دينيًا، ويُختزل الوطن في شخص الحاكم المقدس. لقد مثّلت الكهانة آنذاك الجهاز الأيديولوجي الذي يمنح الغزو غطاءً روحانيًا، فيتحول الاحتلال العسكري إلى وصاية مقدسة على الشعوب.

وفي المقابل، تبنّى الفكر الإيراني الحديث المنطلق ذاته ولكن بوسائل جديدة. فبدلًا من الآلهة الوثنية، جرى توظيف النسب النبوي، وبدل الملك المفوَّض من الآلهة، ظهر الولي الفقيه بوصفه نائبًا عن الإمام الغائب، يمتلك سلطة دينية وسياسية مطلقة. هذه الوراثة الجديدة لم تعد تستند إلى الأسطورة، بل إلى تأويل مذهبي يجعل من الفقيه المتصل بأهل البيت ممثلًا للإرادة الإلهية على الأرض. وبذلك، استبدلت إيران الأسطورة القديمة بالعقيدة المذهبية، لكنها حافظت على الجوهر الإمبراطوري ذاته: احتلال الأرض باسم السماء.

فالهدف في الحالتين واحد، وهو السيطرة على المجال الجغرافي العربي والإسلامي من خلال دعوى الاصطفاء المقدس، سواء كان ذلك نسبًا لآمون في مصر القديمة أو نسبًا لآل البيت في العصر الحديث. وفي كلا التجربتين، تتحول القداسة إلى مشروع جيوسياسي، وتُستبدل الجيوش بالمنابر، والكهنة بالفقهاء، لكن الخطاب يبقى متصلًا من حيث الجوهر: تبرير الغزو عن طريق الدين.

من ثم، يمكن القول إن المشروع الإيراني المعاصر ليس ظاهرة دينية بحتة، بل استمرارٌ للتقليد الفارسي في تسويغ التوسع باسم الولاية، حيث يتم تحويل المعتقد إلى قانون سياسي يمنح الحق في التدخل في شؤون الدول الأخرى تحت شعار الدفاع

عن الأمة أو نصرة المذهب. وبهذا المعنى، فإن الولي الفقيه هو الوريث الحديث لقمبيز، كلاهما يقدّم نفسه كوكيل للإله أو الإمام، وكلاهما يستخدم الخطاب الديني لإخفاء حقيقة الغاية السياسية: السيطرة على الشرق الأوسط من خلال خدعة الشرعية المقدسة([6]).

---

[6] - حقائق وتفاصيل. (دون تاريخ) *.الغزو الفارسي والحكم المبكر لمصر القديمة: قمبيز الثاني وما بعده* .موقع حقائق وتفاصيل . https://factsanddetails.com

سادسًا: الخدعة المستمرة

من قمبيز (٧) إلى الولي الفقيه، تتجدد خدعة الفرس في ثوب مختلف لكنها الجوهر ذاته. فالتاريـخ لم يغيّر أدواتهم بقدر ما صقلها؛ إذ انتقلت الأسطورة إلى العقيدة، والكهنة إلى الفقهاء، والعرش إلى العمامة، بينما ظل الهدف ثابتًا: احتلال الشرق الأوسط باسم الحق الإلهي. لقد أتقن الفرس عبر القرون فنّ تحويل السلطة إلى رسالة، والغزو إلى دعوة، حتى صار الدين عندهم مشروع دولة لا عقيدة شعوب.

وهكذا يستمر التاريخ في إعادة إنتاج ذاته، فتُبعث "وراثة آمون" في صورة "ولاية الفقيه"، وتبقى مصر وبلاد المشرق ساحاتٍ تتجدد عليها تجربة واحدة: تسييس القداسة لخدمة الهيمنة الفارسية.

الخاتمة

تكشف دراسة التطور التاريخي لفكرة الشرعية في الخطاب الفارسي أن ما يُقدَّم على أنه ولاية دينية أو خلافة روحية ليس إلا استمرارًا للنمط القديم الذي بدأ مع قمبيز الثاني. فالقداسة ليست سوى أداة سياسية لإعادة إنتاج الغزو تحت مسميات جديدة. ومن ثم، فإن فهم "ولاية الفقيه" لا يكتمل إلا بوضعها في سياقها التاريخي

---

[٧] - يُذكر أن فرضية اختفاء جيش قمبيز لم تعد أسطورة خالصة، إذ دعمتها أدلة جيولوجية وأثرية حديثة .ففي عام ٢٠٠٠، أعلن فريق جيولوجي من جامعة حلوان، أثناء أعمال تنقيب عن البترول في الصحراء الغربية، عن العثور على بقايا بشرية ومنسوجات وأدوات معدنية يُعتقد أنها تعود إلى الجيش الفارسي المفقود لقمبيز الثاني، الذي غزا مصر في القرن السادس قبل الميلاد.
وقد أشار التقرير الصادر عن المعهد الأثري الأمريكي (AIA) إلى أن هذه البقايا قد تمثل الدليل المادي الأول على صحة رواية هيرودوت، الذي وصف كيف أرسل قمبيز جيشًا قوامه خمسون ألف جندي نحو واحة سيوة لمعاقبة كهنة آمون، قبل أن تبتلعهم عاصفة رملية عاتية.
ويرى الباحثون أن هذا الكشف، إن تأكدت صحته، سيعيد كتابة جزء من تاريخ مصر الفارسية، ويوفر فهمًا أعمق لتقنيات الحرب والتموين والإدارة في الجيش الأخميني آنذاك.

الممتد، بوصفها الوريث الحديث لفكرة أبناء الآلهة، وواجهة حديثة لمشروع قديم لاحتلال الشرق الأوسط عبر بوابة الدين.

التوقيع الأكاديمي

د. إبراهيم محمد عبد الجليل

باحث في فلسفة القانون وعلم الاجتماع القانوني وتاريخ النظم القانونية القديمة

عضو في YouTube – Internet Archive – Academia.edu – ORCID

البريد الإلكتروني: profibrahim2022@gmail.com

ORCID iD: https://orcid.org/0009-0000-3089-6790

صفحتي الأكاديمية:

https://independent.academia.edu/ibrahimProf

أبحاثي على أرشيف الإنترنت:

https://archive.org/details/@prof_ibrahim586

قناتي على يوتيوب:

https://www.youtube.com/@profibrahim9550

00201011508408